بسم الله الرحمن الرحيم

شرح عنوان الحكم لأبي الفتح البستي

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد

[الشريط الثاني]

الطالب: الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد فيقول أبو الفتح علي ابن محمد بن الحسين البستي رحمه الله تعالى في منظومته (عنوان الحكم)

مَنْ عاشَرَ النّاسَ لاقـى مِنهُمُ نَصبَـاَ ...... لأنَّ سوسَـهُـمُ بَغْـيٌ وعُـدْوانُ
ومَنْ يُفَتِّشْ عـنِ الإخـوانِ يقلِهِـمُ ...... فَجُلُّ إخْـوانِ هَذا العَصرِ خَـوّانُ
منِ استشارَ صُروفَ الدَّهرِ قـامَ لـهُ ...... علـى حقيقةِ طَبعِ الدهـرِ بُرهـانُ
مَنْ يَزْرَعِ الشَّـرَّ يَحصُدْ في عواقبِـهِ ...... نَـدامَـةً ولِحَصـدِ الزَّرْعِ إبّـانُ
مَنِ استَنـامَ إلى الأشرارِ نامَ وفـي ...... قَميصِـهِ مِنهُـمُ صِـلٌّ وثُعْبـانُ
كُنْ رَيِّـقَ البِشْـرِ إنْ الحُـرَّ هِمَّتُـهُ ...... صَحيفَةٌ وعَلَيها البِشْـرُ عُنْـوانُ
ورافِـقِ الرِّفْقَ في كُلِّ الأمور فلَـمْ ...... يندّمْ رَفيـقٌ ولـم يذمُمْهُ إنسـانُ
ولا يَغُرَّنْـكَ حَـظٌّ جَـرَّهُ خـرَقٌ ...... فالخَرْقُ هَـدمٌ ورِفـقُ المَرءِ بُنيـانُ

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه ، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

يواصل الناظم أبو الفتح البستي رحمه الله في قصيدته هذه عنوان الحكم نثر هذه الحكم في نظم بديع وبيان جميل ، معددا الحكم واحدة تلو الأخرى ، يقول رحمه الله تعالى

مَنْ عاشَرَ النّاسَ لاقـى مِنهُمُ نَصبَـاَ ...... لأنَّ سوسَـهُـمُ بَغْـيٌ وعُـدْوانُ

في هذا البيت يتحدث ويبين رحمه الله تعالى عن مساوئ وأضرار المعاشرة ، معاشرة الناس عموما أي دون مراعاة فيمن يصاحب ومن يخالل ، فهذا ولاشك فيه خطورة على المسلم ، إذ ليس للمسلم أن يمشي مع من شاء ، كما قال ذلك السلف رحمهم الله وفي الحديث (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) فمن عاشر الناس ، خالطهم وصاحبهم ورافقهم ، (لاقى منهم نصبا) أي سيجد على إثر هذه المخالطة والمصاحبة والمعاشرة سيلقى من الناس نصبا، أي أنهم فيه من سيسيء إليه ومنهم من يظلمه ،ومنهم من يحسده، ومنهم من يبغي عليه ، ومنهم...الخ ، فسيلقى منهم نصبا ، ولهذا شرع لنا في السنة كل مرة نخرج فيها من البيت أن نقول (اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي) لأن الإنسان إذا خرج من بيته سيلاقي الناس ويختلط بهم وفيهم المحسن والمسيء ، وفيهم الظالم والعادل، وفيهم الجاهل والعالم، فهم أخلاط وأجناس وهو عرضة في مخالطته لهم ومعاشرته لهم لأن يلقى النصب ، وهو الجهد والعناء والمشقة بسبب مخالطة الناس لماذا؟ قال (لأن سوسهم بغي وعدوان) والسوس في اللغة هو الأصل والطبع، أي أن طبعهم البغي والعدوان، إلا من رحم الله ونجاه ووقاه وسلمه من ذلك وكان الإنسان ظلوما جهولا، إلا من نجاه الله وسلمه ووقاه سبحانه وتعالى من ذلك

ثم قال رحمه الله

ومَنْ يُفَتِّشْ عــنِ الإخــوانِ يقلِهـــمُ ...... فَجُلُّ إخْــوانِ هَذا العَصرِ خَــوّانُ

وإن شئت أيضا قل (خُوان) جمع خائن ، وكل منهما يستقيم به السياق والمعنى ، و(خَوان) مصدر و (خُوان) جمع خائن

يقول : (من يفتش عن الإخوان يقلهم) ، قلاه يقليه أي أبغضه ، أي يبغضهم ، من يفتش عن الإخوان يبغضهم ، هذه الكلمة تحتمل أحد أمرين يفتش عن الإخوان أي بحثا عنهم ، تحريا لمن يصاحب عملا بالحديث (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) وقوله (فلينظر) فيه أمر بالتحري ، والتنقيب ، لا أن يخالط هكذا دون أن يتحرى ودون أن يطمئن لمن يصاحبهم ، فإذن قوله ، من يفتش أي من يبحث عن إخوان ورفقاء يصاحبهم ويخالطهم (يقلهم) لماذا؟

يقول (جل إخوان هذا العصر خوان)

ويحتمل أن المراد بـ(يفتش عن الإخوان) أي يفتش عن أخلاق و أمور وأعمال من يصاحب، ومن

يرافق، وهذا مذموم ، فكون الإنسان يعني له إخوة وله رفقاء وله أصحاب ثم ، يشتغل بالتفتيش عن معائب وبحث عن أشياء والتنقيب ، هذا لا ينبغي، لكن له الظاهر ، وما يراه منهم في تعاملاتهم ، ومصاحباتهم لا ينقب ولا يفتش

والأقرب أن مراد الناظم ، هو الأول ، يعني أن من يبحث عن الأصحاب ويفتش عن رفقاء ويصاحبهم في الغالب أن كل من يراهم يبغضهم ، بمعنى أنهم قلة ، ولهذا قال في الشطر الثاني (جل إخوان هذا العصر خوان) وهذا يقوله في القرن الرابع ، فكيف بما بعد هذا القرن الذي يتحدث عنه بعشرة قرون ؟، ولكن الخير باق وقد قال عليه الصلاة والسلام (لا تزال طائفة من أمتي على الحق) وقال عليه الصلاة والسلام (لا يزال الله يغرس لهذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته) و (لا يزال) تفيد الاستمرار ، فمثل هذه المعاني لا تقنّط الانسان ، ولا تيئسه ولا تدخله في نظرة متشائمة ، فإن مثل هذا لا يحمد ، بل الخير موجود وأهله لهم وجود ومن بحث عن الإخوان والرفقاء الأخيار وجدهم ، ولا ينتظر فيمن يصاحب كمالا ، النقص موجود والخطأ موجود والضعف في الإنسان موجود ، لكن الأخيار لهم وجود ولهم أعمالهم الخيرة ومآثرهم الحميدة وجهودهم الطيبة

فالمقصود أن مثل هذا البيت لا يجعل الإنسان ينظر نظرة متشائمة أو نظرة يائس ، بل الخير ولله الحمد لا يزال باق ولا يزال الله عز وجل يغرس لهذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته كما جاء في الحديث ، عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه

ثم قال رحمه الله

مِن استشارَ صُروفَ الدَّهرِ قــامَ لــهُ ...... علــى حقيقةِ طَبعِ الدهــر بُرهــانُ

مراده بقوله (من استشار صروف الدهر) يعني استكشف من خلال النظر في التاريخ ، ومر العصور، وأحوال الأمم ، وتقلبات الأيام ، (من استشار صروف الدهر) أي نظر نظرة عبر التاريخ ، ومسار الأمم وأحوالها والتقلبات التي تحصل ، (قام له على حقيقة طبع الدهر برهان) ، أي أنه من خلال هذه النظرة سيكتشف وسيقوم له برهان واضح على حقيقة طبع الدهر ، ومراده أنه جلاب المعاطب والمهالك والدواهي ، هذا المراد بقوله (قام له على حقيقة طبع الدهر برهان)

وهو في هذا جرى مجرى عدد من الشعراء في ذم الدهر ، ونسبة المصائب والمحن والفتن والمهالك ،

والدواهي إليه ، على وجه الذم له ، والدهر كما يُعلم ولا يخفى لا يملك شيئا ، وليس بيده أي شيء من الأمر ، فهو مقلَّب يقلبه الله سبحانه وتعالى كيف يشاء ويصرّفه كيف يشاء لا يملك شيئا ، ولهذا فإن مثل هذه العبارات، وتأتي كثيرا في الشعر من الألفاظ التي لا ينبغي أن تُقال، وهي تندرج تحت النهي الذي دل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار) لأن الدهر مقلّب ولا يملك من أمر التقلب شيء، فالسب له سب لمقلّبه ، لأنه مقلب لا يملك شيئا فالسب له سب لمقلبه ، ومثل هذا لا يجوز بل يجب أن يجتنب وأن يبتعد عنه ، لأنه داخل فيما نُهي عنه في هذا الحديث ، عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه

ثم قال رحمه الله

مَنْ يَزْرَعِ الشَّـــرَّ يَحصُدْ في عواقبِــهِ ...... نَــدامَـــةً ولِحَصَـــدِ الزَّرْعِ إبّـــانُ

(من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة) لأن كل زرع له حصاد ، فمن زرع خيرا ، حصد يوم الحصاد ثوابه وأجره ، ومن زرع شرا ، حصد يوم الحصاد عقابه ووزره ، وزرع اليوم –كما يقال– حصاد الغد ، أي ما يزرعه الإنسان في يومه ، يحصده في غده ، ومن زرع حصد ، حصد أي ما زرعه ، إن خيرا حصد خيرا ، وإن شرا حصد شرا، كما قال الله تعالى { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)}[الزلزلة7–8]

ويوم القيامة يوم الحصاد ، أي يحصد فيه الناس ثمار وأثار أعمالهم ، ولهذا جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ ، عندما قال معاذ للنبي صلى الله عليه وسلم :أوإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، قال(ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم –أو قال على مناخرهم– إلا حصائد ألسنتهم)

فما يقوله الإنسان بلسانه وما يفعله بجوارحه وما يقترفه في هذه الحياة يحصد ثماره وآثاره يوم لقاء الله، إن كان خيرا لقي الثواب والأجر ، وإن كان شرا لقي العقاب والوزر، قال الله تعالى {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}[الرحمن–60] وقال تعالى {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى}[الروم–10]

هذا معنى قوله(من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة) أي فيما يعقّبه الشر من ثمار وآثار ، (ندامة) قال (ولحصد الزرع إبان) أي له وقت ، فالحصاد له وقت ، الذي يزرع زرعا ، ينتظر ثمار زرعه متى؟

إبان الحصاد ووقت الحصاد، فلحصاد الزرع إبان ، كأنه ينبه رحمه الله تعالى إلى أن يوم القيامة هو يوم الحصاد ووقت الحصاد ، وأن كل إنسان سيلقى في ذلك اليوم ما قدّم في هذه الحياة ،{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)}[الزلزلة7–8]

ثم قال رحمه الله

مَنِ استَنــامَ إلى الأشرار نامَ وفــي ...... قَميصِـهِ مِنهُـمُ صِـلٌّ وثُعْبــانُ

(من استنام إلى الأشرار) أي ركن إليهم وسكن إليهم وجالسهم واطمأن إلى صحبتهم ، وحرص على رفقتهم ، سيجني من هذه المجالسة حصادا مرّا وثمارا مؤلمة ونتائج مريرة ، (إلى الأشرار) أي من يعرفون بالشر ، والخبث والسوء والفساد والانحلال والانحراف

(نام وفي قميصه صل وثعبان) و الصِّل هو الحية القاتلة التي إذا نهشت أحدا قتلته ، والثعبان الحية العظيمة ، الضخمة ، فمعنى ذلك أنه لن يحصّل في سكونه إليهم ، ومصاحبته لهم ، ومجالسته أياهم ، إلا النتيجة المرة ، لأنهم سيضعون له السم ، فالصل والثعبان ليس فيهما إلا السم المهلك ، والأشرار لن يضعوا لمن يصاحبهم إلا سمًّا والمراد بالسم هنا الذي يناله الإنسان بمصاحبة الأشرار ، هو ما يفتحونه عليه من أبواب الشر التي فيها عطبه وهلاكه

وكم من إنسان نشأ في بدء حياته نشأة نظيفة وجميلة ونزيهة ، ثم استنام إلى بعض الأشرار ومال إليهم أحب مجالستهم ومصاحبتهم ،وملاعبتهم ، والاستمتاع بمرافقتهم ثم دخل في أمور معاطب مهلكة، مثل الدخول –والعياذ بالله– المخدرات والخمور والفواحش والدخول في الجرائم ، والبغي والعدوان ، يكون في بدأية الأمر نشأ نشأة نظيفة، ثم استنام إلى بعض الأشرار، فتخرج على يديهم مجرما مفسدا، باغيا ظالما معتديا ، بسبب مجالسته ومرافقته للأشرار

وهؤلاء الأشرار الذين يحذر الناظم رحمه الله أشد التحذير من مصاحبتهم ومجالستهم والركون إليهم ، قد ظهر في زماننا نوع من الأصحاب والرفقاء الأشرار لم يكن لهم وجود في أي زمان مضى من أزمنة التاريخ ، وهم أولائك الذين يصاحبهم كثير من الناس مصاحبة طويلة ، من خلال جلوس أمام القنوات الفضائية ومواقع الأنترنت الشبكة العنكبوتية ، هذا صاحب من نوع جديد، وكم أهلك هذا الصاحب من صحبه، وجالسه وكم هي الشرور التي زرعت في نفوس كثير ممن نشؤوا على الخير

والفضل والأدب بسبب مجالسة هذا النوع من الأصحاب، وأصبح كثير من الناس والشباب ذكورا وإناثا يجلس في غرفة وحده ويغلق الباب ويطمئن أنه لا يراه أحد من الناس ، ثم يدخل في متاهات من الأصحاب الأشرار من أرباب الشهوات أو الشبهات، ومع طول هذه المصاحبة وإدمان هذه المجالسة، يفسد قلب هذا الإنسان ويعطب قلبه، وهذا حصل لكثير من الناس، هذه القنوات وتلك المواقع ، ينطبق عليها انطباقا تاما قول الناظم

(من استنام إلى الأشرار نام وفي *** قميصه منهمُ صلّ وثعبانُ)

كم والله من السموم بثت في نفوس أناس نشؤوا نشأة خيرة ونشأة طيبة فتحولوا تحولا جذريا إلى أنواع من الشرور والمفاسد بسبب استنامتهم لهؤلاء الأشرار من خلال القنوات الفضائية ومواقع الأنترنت وفي زمن مضى لم يكن لأعداء الدين طريق للوصول إلى أفكار الشباب والناشئة إلا بصعوبة بالغة، لكن لما وجدت هذه الآلات والوسائل، وسائل الاتصال السريع أصبح هؤلاء الأعداء يدخلون ، على العقول والأفكار من خلال هذه الوسائل التي أضرت بكثير من الشباب وقتلت كثيرا من الفضائل وخلخلت كثيرا من العقائد وأثارت الكثير من الشبهات وأججت كثيرا من الشهوات ، وأمرضت كثيرا من القلوب وجرت إلى كثير من المصائب ، فهذا البيت ينطبق تماما على هذه الآلات ، وهي نوع من الأصحاب استجد في زماننا هذا ولم يكن له وجود في زمن سابق

والعاقل ينجو بنفسه ويربأ بها أن تهلك مع الهالكين وقد قيل:

قد هيئوك لأمر لو فطنت له *** فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

ثم قال رحمه الله تعالى

كُنْ رَيَّــقَ البِشْــرِ إنْ الحُــرَّ هِمَّتُــهُ ...... صَحيفَةٌ وعَلَيهــا البِشْــرُ عُنْــوانُ

من كان من خيار الناس همته في ملاقاة الناس وجهه مثل الصحيفة البيضاء التي عنوانها ، البشر، بحيث أنه دائما يحرص في كل وقت وكل حين أن يلقى الناس بالبشر ، وطلاقة الوجه

ثم قال رحمه الله تعالى

ورافِــقِ الرِّفْقَ في كُلِّ الأمور فلَــمْ ...... يندّمْ رَفيــقٌ ولــم يذمُمْهُ إنســـان

ورافق الرفق أي صاحبه ولازمه ، وكن من أهله ، (في كل الأمور) أي في جميع أمورك تعامل بالرفق

ابتعد عن الاندفاع ، الرعونة ، التهور الطيش العجلة ، العنف.. ابتعد عنها ، ولازم الرفق في كل الأمور(فلم يندم رفيق) ، يعني من يتعامل مع الناس برفق لم يندم يوما من الأيام ، لكونه يتعامل بالرفق ، لأن الرفق كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام (خير كله) ولا يأتي إلا بخير فإذن من يتعامل مع الناس برفق ، لا يندم ، لكن من يتعامل مع الناس بضد الرفق ، كثيرا ما يندم ، ليتني وليتني

(فلم يندم رفيق ولم يذممه إنسان) يعني لم يذمه أحد لرفقه وهدوئه ورزانته وتؤدته ، ولكن الناس دائما يذمون العجل الطائش المتهور المندفع هذا دائما يذمونه الناس فهو يندم من جهة والناس يذمونه من جهة أخرى ، بينما الرفيق سلم من هذين الأمرين ، لا يندم على قراراته ، والإجراءات التي اتخذها ، وأيضا في الوقت نفسه لا أحد يذمه

ثم قال

ولا يَغُرَّنْــكَ حَــظٌّ جَــرَّهُ خــرَقٌ ...... فالخَرْقُ هَــدمٌ ورِفــقُ المَرءِ بُنْيــانُ

(ولا يغرنك حظ جره خرق) أي أياك أن تغتر ، لحظ أي نصيب حصل لبعض الناس بسبب نوع من الخرق ،يعني تعامل معاملة فيها شيء من الخرق ، وحصل نتيجة مصلا جيدة ، فلا تغتر بذلك ، لأن بعض الناس قد يرى شخصا من الأشخاص مثلا اندفع في أمر ما وحصل ربحا مثلا ، أو غنيمة ، فيغتر فيسلك مسلكه ، ثم يقع في الهلاك فيقول لا تغتر بحظ جره خرق

(فالخرق هدم) والخرَق والخرْق بمعنى واحد وهو الحماقة والتهور والاندفاع ، (فالخرق هدم) أي دائما التعامل بالخرق والتهور والاندفاع ، والطيش هدم أي النتائج التي تترتب على التعامل مع الأمور بالخرق هي في الحقيقة هدم لا بناء

(ورفق المرء بنيان) إذن هذا معنى جميل جدا الرفق يبني والخرق يهدم ، لا يحصل صاحبه من ورائه ثمارا جميلة وآثارا حميدة فهذا كله تأكيد من الناظم رحمه الله على العنأية بالرفق ، والحذر من الخرق، والخرق ، وقد جاء في الحديث في مسند الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من يُحرم الرفق يحرم الخير) أي من يتعامل في الأمور بالتهور والاندفاع، يحرم الخير ، لا يحصل نتائج خيرة وثمار جميلة، وطيبة

أحسِنْ إذا كــانَ إمكانٌ ومَقــدِرةٌ ......فلن يَــدومَ على الإحســانِ إمكانُ
فالرَّوضُ يَــزدانُ بالأنْــوَارِ فاغِمــةً ...... والحُرُّ بالعــدلْ والإحســانِ يَــزْدانُ
صُنْ حُرَّ وَجهِــكَ لا تَهتِكْ غِــلامتهُ ...... فكُــل حُــرٍّ لِحُــرِّ الوَجــهِ صَــوّانُ
فإنْ لَقِيــتَ عــدُوّاً فَالْقَــهُ أبَــداً ...... والوَجــهُ بالبِشْرِ والإشــراقِ غَضّــانُ
دَعِ التكاسُلَ في الخَــيراتِ تطلُبُــها ...... فليــسَ يسعَدُ بالخَــــيراتِ كَسْــلانُ
لا ظِلَّ للمَرءِ يعرى من تُقىً ونُهــىَ ...... وإن أظَلَّتْــهُ أوراقٌ وأغصــانُ
والنّاسُ أعــوانُ مَنْ وَالتْــهُ دولَتُــهُ ...... وهُمْ علَيــهِ إذا عــادَتْــهُ أعــوانُ
سَحْبــانُ من غَيرِ مالٍ باقِلٌ حَصِــرٌ ...... وبــاقِلٌ فــي ثَراءِ المــالِ سَحْبــانُ
لا تُودِعِ الســرَّ وَشَّــاءً يبــوحُ بهِ ...... فما رعــى غَنَماً فــي البدَّوِّ سِرْحــانُ
لا تَحسَبِ النَّاسَ طَبْعاً واحِداً فَلهُمْ ...... غــرائــزٌ لسْتَ تُحصِيــهن ألــوانُ
ما كُــلُّ مــاءٍ كصَــدّاءٍ لــوارِدِه...... نَعَمْ ولا كُــلُّ نَبْتٍ فهــو سَعْــدانُ
لا تَخدِشَــنَّ بمَطْلٍ وَجْــهَ عارِفَــةٍ ...... فــالبِــرُّ يَخدِشُــهُ مَطْــلٌ ولَيّــانُ
لا تَستشِــرْ غيرَ نَدْبٍ حازِمٍ يَقِــظٍ ...... قــدِ استَــوى فيــه إسْرارٌ وإعْــلانُ
فللِتــدابيــرِ فُرْســانٌ إذا رَكِبُــوا ...... فيهــا أبَــرُّوا كمــا لِلحَربِ فُرْســان

ثم قال رحمه الله تعالى

أحسِنْ إذا كــانَ إمكانٌ ومَقــدِرةٌ فلن ...... يَــدومَ على الإحســانِ إمكانُ

(أحسن) أي في المجال الذي فتح لك باب الإحسان فيه ، وهذا لا يختص بأمر معين وإنما يتناول كل أبواب الإحسان ، إن فتح لك باب في التعلم والعلم والتحصيل أحسن في ذلك ، إن فتح لك باب في العبادة والنوافل أحسن في ذلك، في البر والصلة أحسن في ذلك، في النفقة والبذل...

يقول (أحسن إذا كان إمكان ومقدرة) كلما وجدت إمكان ومقدرة على الإحسان فأحسن ، لا تؤجل، ولا تؤخر، قد يفتح لك باب إحسان اليوم وتؤجله إلى الغد، فلا ينفتح لك في الغد، بل ربما لا ينفتح لك إلى أن تموت ، فهذا تنبيه من الناظم أن العاقل يغنم ، مباشرة إذا حصّل بابا من أبواب الخير ومجالا من مجالاته، يغنم ذلك والله تعالى يقول {يَا أيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُول إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}[الأنفال-24]، يعني أخذ من ذلك أهل العلم أن

من لا يستجيب ولا يبادر ولا يسارع للخير قد يحال بينه وبين ذلك ، ويعاقب بالحرمان منه ولهذا ينبغي على الإنسان إذا انفتح له باب من أبواب الخير أن يحرص على اغتنامه ، وتحصيله قبل أن يحال بينه وبينه

ما كل وقت ينشرح صدرك لطلب العلم مثلا ، ولا كل وقت ينشرح صدرك للنوافل ، فإذا حصل من النفس إقبال وإمكان، وقدرة اغتنم ذلك، لعل ذلك يكون هو البوابة والمدخل للمضي في هذا الطريق المبارك ، بخلاف من يؤجل ، قد يكون هو التأجيل هو التأجيل الذي لا عودة بعده، إلى أن يموت الإنسان، أحسن إذا كان إمكان ومقدرة لماذا؟

يأتيك الجواب والتعليل في الشطر الثاني

قال (فلن يدون على الإحسان إمكان) يعني هذا الإمكان الذي حصل لك في وقت ما ، لن يدوم لك ، ولن يستمر، إما بضعفك، أو ضعف همتك، أو كثرة المثبطات من حولك، أو كثرة الشواغل، أو عدم وجود المعين، أو غير ذلك، يعني مثلا قد يتهيأ لك حلقة علم على عالم فاضل، تتعلم على يديه، ثم تؤجل، ذلك سنة سنتين ثلاث ثم يموت ذلك العالم ، فلا يكون عندك إمكان ، قد فوت على نفسك الخير وقت الإمكان فهذا معنى قوله

(أحسن إذا كان إمكان ومقدرة *** فلن يدوم على الإحسان إمكان)

أي هذا الإمكان لا يدوم لك، لأن الأمور والأيام تتغير، فما كان ممكنا اليوم، قد لا يكون ممكنا الغد

يعني أعطيك مثالا حضرني الآن، أنت في فترة من فترات حياتك، عندك إمكان أن تقرأ الكتب من دون زجاجة، تعينك على القراءة، ربما تأتي عليك مرحلة ، لا تتمكن من قراءة الكتب إلا بالزجاجة، وإذا لم تكن معك لم تستطع أن تقرأ، وربما تأتي على الإنسان فترة ، لا يستطيع أن يقرأ لا بالزجاجة ولا بغيرها ، لأن الإمكان الذي هو البصر قد يكون ضعف، فلا يتمكن إلا بزجاجة وقد يذهب البصر، فلا تنفع لا زجاجة ولا غيرها

فإذن وقت الإمكان يغتنمه الإنسان ويحرص عليه

وسبحان الله من فضل الله سبحانه وتعالى أن العمل الصالح، إذا حال بين الإنسان وبينه مرض صحي

كتب له ما كان يعمل، مثل قراءة الإنسان ببصره الكتب والعنأية بحفظ بصره، ثم فقد بصره ، يكتب له وفضل الله سبحانه وتعالى واسع

إذن قوله

(أحسن إذا كان إمكان ومقدرة *** فلن يدوم على الإحسان إمكان)

فهذا يدخل تحته معاني كثيرة جدا ، أيضا مثال آخر حضر في ذهني، وجود الأبوين عند الإنسان، هذا إمكان عظيم جدا مهيأ للبر ، بر الوالدين من أجل الأعمال وأعظمها، وقرن في حق الله في أيات كثيرة جدا،{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ }[القمان–14]، {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا }[النساء–36]، قد يكون عندك فرصة عظيمة للبر ، ثم يأتي عليك زمان ربما تفقد الوالدين أو تفقد أحدهما، ويندم المفرط ، لضياع الإمكان ، كان عنده الإمكان فضيع ثم فقد والديه ، ثم لم يعد عنده إمكان لذلك ، إذن مادام الإمكان موجود اغتنم ذلك ، ولا تضيع على نفسك الفرصة

وهذا البيت تحته معاني كثيرة جدا ، قد يأتي إنسان إلى بلد، ويكون في مجالس علم حافلة بالعلم ، وتكون مدته مثلا في هذا البلد ثلاث سنوات وأربع سنوات، فكان عنده إمكان في تلك المدة أن يحصل على الأكابر من أهل العلم، ثم تنتهي الثلاث سنوات ويرجع إلى بلده ، فينتهي ذلك الإمكان، ويندم ، فكما قال (فلن يدوم على الإحسان إمكان) إذن مادامت الفرصة مواتية والإمكان متيسر ومتهيئ ، ينبغي على الإنسان أن يقدم على ذلك ، وقد قال عليه الصلاة والسلام (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن)

ثم قال رحمه الله

فالرَّوضُ يَــزدانُ بالأنْــوَارِ فاغِمــةً ...... والحُرُّ بالعــدلْ والإحســانِ يَــزْدانُ

(فالروض) الأرض المربعة المعشبة كثيرة النبات والزهر، والشجر ، لا تمل من النظر إليها، والجلوس فيها، (فالروض يزدان بالأنوار) إذا جئت إلى روض أرض روضة فيها العشب والنبات الكثير ، إذا رأيت في هذا النبات النور وهو الأزهار، إذا رأيت الأنوار يعني جمع نور وهو الزهر، فإذا رأيت الأزهار ذات الرائحة الجميلة ، ماذا يحصل له بوجود هذه الأزهار في الروض ، يزدان الروض بالأزهار (فاغمة)، إذا جئت إلى الروض وفيه الأزهار المتفتحة وتنبعث منها تلك الرائحة الجميلة، فهذا أمر

يزدان به الروض ويجمل ويطيب

(والحر بالعدل والإحسان يزدان) يعني مثل ما أن الروض يزدان بالأزهار ، فالحر ، الخير من الناس والفاضل منهم يزدان أيضا بالعدل والإحسان ، كلما كان متحليا بالعدل والإحسان متصفا بهما ، كان ذلك زينة وجمالا له، مثلما أن الأرض تجمل وتزين ، بالأزهار المتفتحة ذوات الروائح الجميلة الطيبة فكذلك الإنسان الفاضل الخير ، يزينه ويجمله عدله وإحسانه

صُنْ حُرَّ وَجهِــكَ لا تَهتِكْ غِــلالتهُ ...... فكُــل حُــرٍّ لِحُــرِّ الوَجــهِ صَــوّانُ

(حر وجهك) أي حسنه وطيبه ، وضياؤه وجماله، صنه أي جنبه ، وأبعده عن كل أمر يبعد عنه هذه النضارة وهذا الحسن وهذا الجمال (صن حر وجهك لا تهتك غلالته) قالوا: الغلالة الثوب الرقيق ، فكأن الثوب الطيب الحسن البهي كأن عليه غطاء رقيق جميل يزدان به الوجه ، ويجمل ، فإذا دنّسه صاحبه بما لا يجمل ومالا يطيب ، هتك تلك الغلالة ، وأزال ذلك الستر عن وجهه ، فذهبت عن وجهه نضارته وحسنه وجماله

(فكل حر لحر الوجه صوان)كل حر من الرجال، أي صاحب المآثر والأخلاق، والصفات الحميدة، (لحر وجهه صوان) ، أي يصون حر وجهه عن كل ما يشينه ويقبحه ويريق دم وجهه وبهاء وجهه لتوافه الأمور، الدنيوية، بعض الناس لا يبالي بذلك ، يعني لا يبالي بأن يريق دم وجهه بحيل ، بكذب ، بافتراء إلى غير ذلك ما يبالي بهذا ، لا يبالي إذا لقاه الناس يرون –مثلا– في وجهه الكذب، والشر والأذى ، والفجور لا يبالي بهذه المعاني، لأنه هتك غلالة وجهه ولم يصنه ، وأراق دم وجهه ، فإذن الحر يصون حر الوجه ، أي جمال الوجه وحسنه وبهاءه عن كل أمر يشينه

وإذا كان الحديث حديث عن حر الوجه الذي هو جمال الوجه وزينة الوجه ، فإمام هذا الأمر قول النبي صلى الله عليه وسلم (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فحفظها فأداها كما سمعها) هذا إمام هذا الأمر وجماعه، نضارة الوجه وزينته وحسنه وجماله، وبهاؤه ، إنما يكون بالعنأية بالسنة ، علما وعملا، وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لمن كانوا كذلك بهذه الدعوة الميمونة المباركة ، (نضر الله امرأ) ومعنى نضره

أي كسا وجهه جمالا وحسنا وبهاء

ثم قال رحمه الله تعالى

فإنْ لَقِيــتَ عــدُوّاً فَالْقَــهُ أبَــداً ...... والوَجــهُ بالبِشْرِ والإشــراقِ غَضّــانُ

ومعنى (غضان) يعني مشرق ، وطلق ، في هذا البيت يوضح كيف يتعامل الإنسان ، مع الأعداء ، وأهل الشر إذا لقيهم وابتلي بهم ، فيقول عليك أن تلقاهم أبدا يعني دائما وباستمرار بالوجه والبشر ، (والوجه بالبشر والإشراق) تلقاهم بالبشر والإشراق ، لتدفع بذلك شرهم وعدوانهم ، عملا بقوله تعالى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ }[فصلت–34] فإذا كان الذي بينك وبينه عداوة أو من كان صاحب عدوان ، فاحرص على أن تلقاه بالبشر ، وإشراقة الوجه ، وطلاقة الوجه، وقد جاء في الصحيح حديث أم المؤمنين عائشة أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال (بئس أخو العشيرة) ثم لما دخل الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلق النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه وكان قبل قليل قد قال (بئس أبو العشيرة) ولما دخل الرجل تطلق النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه ، ثم لما خرج سألته عائشة في ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام (إن شرار الناس من اتقاه الناس خشية شره) أو كما قال عليه الصلاة والسلام فإذن هذه الوصية التي ذكرها الناظم مستمدة من هذا الحديث ، وأن الإنسان ينبغي أن يلقى عدوه أبدا وباستمرار ، بالبشر والإشراق، وطلاقة الوجه، لماذا؟

أولا أنت بمثل هذا الأسلوب تكف شره عنك ، وهذا يسمى دفع بالتي هي أحسن ، فأنت تكف شره عنك

والناحية الثانية قد تفيده هو ، بأن يتأثر بتعاملك وأخلاقك ، وكم من الناس الذين عرفوا بالعدوان تحولوا إلى أفاضل أخيار لمعاملة عوملوا بها ، فأثرت فيهم ، وانظر شواهد ذلك الكثيرة في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، كيف كان يلاقي خصومه وأعداءه ، وكيف تلك الملاقاة تحولوا بسببها إلى حال هي أحسن حال

ثم قال رحمه الله

دَعِ التكاسُلَ في الخَـيراتِ تطلُبُـها ...... فليـسَ يسعَدُ بالخَـيراتِ كَسْـلانُ

هذا بيت فيه التحذير من الكسل ، وكثيرا ما جاء التعوذ من الكسل ، في الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، (اللهم إني أعوذ بك من العجز ومن الكسل) والعجز يختلف عن الكسل ، من جهة عدم القيام بالشيء لعدم القدرة عليه، أما الكسل فهو عدم القيام بالشيء مع القدرة عليه، يعني قادر بدنيا وجسديا وصحيا على أن يقوم بشيء فلا يقوم به بسبب الكسل ، فيقول دع التكاسل، إذا عنّت لك أبواب من أبواب الخير، لا تقابلها بالتكاسل ، (دع التكاسل في الخيرات) يعني إذا انفتحت لك أبواب الخيرات لا تتكاسل، ولا تقابلها بالكسل

(تطلبها) معنى تطلبها أي تحب أن تحصلها وأن تكون من أهلها لكن لا تفعلها كسلا، وتترك فعلها بسبب الكسل، وأنت تطلبها ، تحبها وتحب أن تكون من أهلها ، ولكنك لا تفعلها بسبب الكسل، والوقوع في التكاسل

(فليس يسعد بالخيرات كسلان) الخيرات لا يسعد بها وبأن يكون من أهلها والقائمين بها من كان من أهل الكسل

قال

لا ظِلَّ للمَرءِ يعرى من تُقىً ونُهـىً ...... وإن أظلَّتْـهُ أوراقٌ وأغصـانُ

(لا ظل للمرء يعرى من تقى ونهى) أي أن الإنسان إذا كان ليس فيه تقوى، وليس فيه نهى ، والنهى العقل، يعني ليس عنده تقوى وليس عنده عقل ، إذا كان عاريا من التقوى ومن العقل ، لا ظل له بمعنى لا عز له ، ولا مَنَعَة حتى (وإن أظلته أوراق وأفنان) يعني حتى لو كان في ظل الأوراق أوراق الأشجار، والأفنان التي هي الغصون ، غصون الأشجار، لو كان في ظل جميل للشجر هو في الحقيقة لا ظل له ، لأن ظل المرء الحقيقي تقاه ونهاه أي عقله ، التقى والنهى ، والنهى هو العقل ، و {لِّأُولِي النُّهَى}[طه-45] أي أولي العقول

(لا ظل للمرء يعرى من تقى ونهى) أي من عري من التقى والنهى أي لم يكن متحليا بهما متصفا بهما ، لا ظل له أي لا عز له ولا منعة ، حتى ولو كان في ظلال الأشجار ذات الغصون الجميلة

والنّاسُ أعــوانُ مَنْ وَالتْــهُ دولَتُــهُ ...... وهُمْ علَيــهِ إذا عــادَتْــهُ أعــوانُ

(والناس أعوان من والته دولته) معنى (والته دولته) أي أقبلت عليه دنياه وانفتحت عليه الدنيا ، ومن كانت هذه صفته وأصبح بيده دنيا ومال إلى آخره ، أعوان له ، كلٌّ يعرض نفسه لخدمته ، وكل يقول له أي خدمة في أي لحظة ، ولا تتردد في أي ساعة من ليل أو نهار أنا جاهز

(وهم عليه إذا عادته أعوان) أعوان عليه يعني ضده ، يعني إذا كان صاحب مال وثراء وكذا ، كل يبدي له استعدادا تاما لخدمته ، ومعاونته ، وإذا تغير الأمر إذا عادته يعني أصبح ما عنده شيء من ذلك المال ، والثراء ، فإنهم أعداء له

قل مثل ذلك تماما في من كان يوما ما عنده رئاسة ، جميع من تحته ومنسوبيه ، كل واحد منهم تحت الخدمة وأعوان له ، وإذا انتهت تلك الرئاسة وتلك الزعامة لم يبق منها شيء ، لا يبقى شيء من ذلك بل ربما يتحول عدد منهم إلى أعداء له ، فالأمر كما قال

(والناس أعوان من والته دولته *** وهم عليه إذا عادته أعوان)

أي يتكالبون عليه، عدوانا وأذى

سَحْبــانُ من غَيرِ مالٍ باقِلٌ حَصِــرٌ ...... وبــاقِلٌ فــي ثَراءِ المــالِ سَحْبــانُ

(سحبان) هذا من وائل كان يضرب به المثل في الفصاحة ، والبلاغة والبيان ، رجل فصيح جدا يضرب به المثل، فإذا أريد مدح شخص لفصاحته وبيانه قالوا :سحبان وائل، فصاحة كفصاحة سحبان، يضرب به المثل في الفصاحة ، يقول (سحبان) أي هذا الفصيح البليغ (من غير مال) إذا ما كان عنده مال (باقل حصر) باقل رجل آخر من بني أياد ،يضرب به المثل في العيّ، يعني ما يستطيع أن يفصح عن شيء يريد أن يقوله ، الكلام عنده عسر جدا ، حتى مما ذكر من عيّه أنه اشترى ضبيا ، بأحد عشر درهما ، فلقيه قوم ، فقالوا له يا باقل بكم اشتريته؟ فترك الضبي وأشار لهم بيديه إلى اثنتي عشر وأخرج لسانه ليبين لهم أنه اشتراه بإحدى عشر فانطلق الضبي وهرب ، قالوا بكم؟ فما أحسن أن يقول أحد عشر درهما عنده عي في الكلام ، والإفصاح عما يريد ، فكان يضرب به المثل في العيّ ، يعني عدم القدرة على الإفصاح والبيان

فيقول الناظم (سحبان) هذا الفصيح البليغ ، من غير مال باقل حصر ، يعني عند الناس ، إذا كان

الشخص فصيحا وبليغا وليس عنده مال يعتبرونه باقل حصر ، ولا يعتبرون كلامه

(وباقل في ثراء المال سحبان) باقل يعني الرجل العيي الذي لا يحسن أن يفصح ، ولا يحسن أن يتكلم إذا كان صاحب مال ، وأخذ يتكلم ، ما الذي يحدث؟ صاحب المال والثراء الذي هو في الحقيقة عنده عي في البيان ولا يحسن أن يتكلم ، إذا أخذ يتكلم ، فالذين حوله ، كيف يكون استماعهم له؟ كلهم ينصتون ، وإذا تكلم كل واحد يقول له : ما أحسن بيانك ، وما أجمل كلامك ، وما أروع فصاحتك ، وكلامك هذا كله ذهب ، وكله درر ، وما رأيت مثلك في البيان ، أيش الجمال هذا ، وأيش العبارات الحلوة .. وهو لا يعتبر أصلا الكلام والفصاحة لا ينظر إليها وإنما من أجل ما عنده من المال ، فيمدحه حتى يقرب منه ، وحتى يحصل منه شيئا ، هذا غالب في نظرة كثير من الناس

(سحبان من غير مال باقل حصر *** وباقل في ثراء المال سحبان)

ثم قال

لا تُودِعِ السِــرَّ وَشَّــاءً يبــوحُ بهِ ...... فما رعــى غَنَماً فــي البدَّوِّ سِرْحــانُ

سرك لا تودعه شخصا وشاء ، والوشاء هو المذياع الذي لا يحفظ السر ، ولا يحسن كتمه ، ويقولون : إن السر إذا جاوز الاثنين شاع، ما المراد بمجاوزته الاثنين؟ قيل المراد بمجاوزته الاثنين أي الشفتين ، إذا أخرجته أنت يا صاحبه من شفتيك لم تحفظه ، ولن تتمكن من حفظه ، ومن أودعته عنده لن يتمكن إلا من رحم الله

وكتمان السر أمر عزيز جدا ، ولن يُوفق لذلك إلا من وفقه الله سبحانه وتعالى ، وبعض الناس أيضا معروف بإفشاء السر وعدم كتمانه ، فيُحذِّر من إفشاء السر لمن يبوح به ، وأن الإنسان ينبغي أن يحفظ سره

يقول (لا تودع السر وشاء يبوح به) يبوح به أي يعلنه ويظهره ، وهذا تحذير من ائتمان من لا يؤتمن (فما رعى غنما في الدّوّ سرحان) سرحان هذا اسم للذئب ، من أسمائه سرحان بكسر السين ، و (الدو) الصحراء والمفازة، فهل يتصور أن الذئب يرعى الأغنام في الصحراء ؟ الجواب لا ،لا يرعاها ، يعني هذا مثل ذكره للوشاء إذا أودع السر لا يحفظ السر ، وهو مثل الذئب لو أودع الغنم ، لا يحفظها بل يبطش بها ويجعلها ما بين قتيل وجريح

ثم قال

لا تَحسَبِ النَّاسَ طَبْعاً واحِداً فَلهُمْ ...... غــرائــزٌ لسْتَ تُحصِيــهن ألــوانُ

يعني لا تظن أن الناس على معدن واحد، وعلى مستوى واحد في الأخلاق ، لا تظن في الناس أنهم بهذه الصفة ، بل الناس معادن ، وفي الحديث (الناس معادن) وهو في الصحيحين فالناس ليسوا على طبع واحد ولا على معدن واحد ولا على خلق واحد، فلا (تحسب الناس طبعا واحدا) لو أنك ظننت أن الناس طبعا واحدا ، تتعب ، إذ أنك تفاجأ في مخالطتك للناس بطباع مختلفة ، يعني شخص تعامله معاملة جيدة ما ينساها لك أبدا ، ثم آخر تعامله بنفس تلك المعاملة الجيدة ، فتجده يحفر لك بالخفاء ، وأنت قد أحسنت إليه ، فأناس لا ينسون الجميل ، وأناس لا ينفع فيهم الجميل، بل يعني هم طبعوا على اللؤم ، وسوء الطبع، لكن يد المعروف والإحسان لا تضيع ، أينما وضعت ، وما ضاع في الدنيا لا يضيع عند الله سبحانه وتعالى

ولهذا ينبغي على المسلم أنه عندما يقدم صنائع المعروف ، يقدمها رجاء ما عند الله ، أما إذا قدم صنائع المعروف يرجو بها ممن أحسن أليهم شيئا ، فهذا يتعب جدا ، فالأصل في صنائع المعروف أن تقدم قربة ،يتقرب بها المسلم إلى ربه سبحانه وتعالى ، (ويد المعروف غنم حيث كانت) ، كما قال ذلك عبد الله ابن المبارك، يعني سواء كانت في شَكور أو كَفور هي غنم ،لكن متى تكون غنما لك؟ إن صنعتها تقربا لله ، وطلبا لثوابه سبحانه وتعالى ، ورضاه ، ولهذا قال الله تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}[الأعراف–199] قيل في معنى خذ العفو ، أي من الناس ما سمحت به طباعهم ، ولا تنتظر منهم جميعا أن يعاملوك بالعمالة الكريمة التي ترى أنت أنك تستحقها ، وتستحق أن تعامل بها ، لا تنتظر ذلك ، حتى من أولادك وأقرب الناس إليك ، واقرأ كلاما عظيما جميلا جدا في معنى هذه الآية في تفسير الإمام السعدي رحمه الله تعالى ، وكذلك اقرأ له كلاما جميلا حول معنى هذه الآية في كتابه الرياض الناضرة

قال (فلهم غرائز لست تحصيهن ألوان) أي طباع الناس وغرائزهم ومعادنهم ، وأصناف أخلاقهم ، هذه لا تحصى ، والناس في هذا الباب متفاوتون تفاوتا كبيرا

هدانا الله أجمعين لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو وصرف عنا أجمعين سيئها ، لا يصرف عنا سيئها إلا هو

ثم قال لتقرير ما سبق وتوضيحه بالمثال

ما كُــلُّ مــاءٍ كصَــدّاءٍ لــوارِدِه...... نَعَمْ ولا كُـــلُّ نَبْتٍ فهـــو سَعْــدانُ

(ما كل ماء كصداء لوارده) وصداء هي عين عذبة مشهورة بعذوبتها وحسن مائها وطيبه، فيقول (ما كل ماء كصداء) يعني ما كل عين تكون في العذوبة كصداء ، أي مثل تلك العين المعروفة بهذا الاسم، هذا جاء به شاهدا لتفاوت الناس في طبائعهم ، كما أنه ما كل ماء كصداء ، فأيضا ما كل الأخلاق خلقا واحدا ، ولا كل الطباع طبعا واحدا

(نعم ولا كل نبت فهو سعدان) والسعدان نبت جيد نافع جدا للإبل ، وهو مرعى للإبر نافع لها ، ويدرّ لبنها، ويفيدها فائدة عظيمة جدا، (ولا كل نبت فهو سعدان) يعني ليس كل النباتات بمستوى هذا النبت المعروف بسعدان بفائدته وجودته وحسنه ، نفعه للإبل التي ترعاه، هذان مثلان جاء بهما رحمه الله توضيحا لما سبق

ثم قال

لا تَخدِشَـــنَّ بِمَطْلٍ وَجْــهَ عارِفَـــةٍ ...... فـــالبِـــرُّ يَخدِشُـــهُ مَطْـــلٌ ولَيّـــانُ

(لا تخدشن بمطل وجه عارفة) مراده بقوله (عارفة) أي معروف ، عندما تقدم معروفا لإنسان أو همّ بتقديم معروف لإنسان أو تعد أحدا بمعروف ، فإياك أن تخدش وجه معروفك له، بمطل ، يعني مثلا شخص وعدته بشيء ، وقلت: حاجتك الفلانية عندي، واعتبرها منتهى على يدي ، وأنا سأتولاها ، ثم جاءك اليوم وقلت له: مرني بعد أسبوع، وبعد أسبوع قلت له: تعال بعد الأسبوع القادم، ثم بعد أسبوعين وثلاثة وترديد ...الخ قمت بالمعروف الذي وعدته به، تكون بذلك خدشت وجه المعروف، يعني جماله وحسنه خدشته بالمطل والتأخير والتأجيل ، وعدم سرعة الوفاء لما وعدته به

(فالبر يخدشه مطل وليان) البر الذي هو المعروف والإحسان يخدشه ، أي يجرحه ، الخدش الجرح ، (يخدشه مطل وليان) واللي هو المطل ، ومنه الحديث وهو حديث حسن في المسند وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لي الواجد يحل عرضه وعقوبته)

ثم قال رحمه الله

لا تَستشِـــرْ غيرَ نَدْبٍ حازِمٍ يَقِـــظٍ ...... قـــدِ استَـــوى فيـــه إسْرارٌ وإعْـــلانُ

(لا تستشر غير ندب حازم يقظ) هذه ثلاث صفات نبه عليها الناظم، رحمه الله تراعى في الشخص الذي يستشار، وأنت تعرف أن الشريعة حثت على الاستشارة، ورغبت فيها وقال الله عز وجل {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ }[آل عمران–159] وفي المأثور عن أهل العلم (ما خاب من استشار) فالاستشارة هي زيادة في العقل، لأنك ضممت إلى عقلك عقل غيرك، ممن عنده بصيرة ورأي ، لكن ليس كل أحد يصح لأن يستشار ، والاستشارة هذه أمر خطير جدا، وأحيانا يدخل الإنسان بسبب الاستشارة في منعطف خطير في حياته ربما يبقى عليه إلى أن يموت ، وربما أيضا بالاستشارة يدخل مسلكا جميلا حميدا ، يحمد سيره عليه إلى أن يموت ، فالاستشارة أمرها مهم جدا ، وليس كل أحد يصلح أن يستشار

إذن من الذي يصلح لأن يستشار؟ يأتيك الجواب في هذا البيت حيث يقول (لا تستشر غير ندب حازم يقظ) يعني احصر استشارتك في من هذه صفاقم ، الندب قالوا في اللغة: رجل ندب أي خفيف في الحاجة ، يعني معروف بسرعته في خدمة الناس وأمور البر والعمل في أبواب الإحسان ، يعني رجل مبادر ومسارع للخيرات ، والندب الذي هو صاحب همة عالية وجد ونشاط في العمل الخيري ، تستفيد من هذه الصفة التي فيه ، لأنك إن استشرت كسولا ، يقول لك : لا تستعجل الآن ، ارتاح لك شهر شهرين ثلاثة والدنيا إن شاء الله فيها خير والذي ما تحصله اليوم تحصله الشهر القادم ،وتحصله السنة القادمة واترك الآن العمل ، اجلس جسمك يرتاح ...الخ من هذه المعاني . فالكسول من طبيعة كسله يعطي مشورته ، والندب الشخص النشيط بنشاطه وهمته وعزيمته أيضا يعطي من يستشيره دفعة مفيدة جدا استفدت منه في هذا الجانب

والحازم الضابط ، يعني ضابط للأمور، وعنده تمييز لها بين الحسن والسيئ والطيب والرديء ، معروف بضبطه وإتقانه ، للأمور

والصفة الثالثة (يقظ) أي نبيه فيه نباهة ويعرف كيف يبدي الرأي المناسب في الوقت المناسب في المجال المناسب

فهذه ثلاث صفات ذكرها رحمه الله جميلة جدا ، فيمن يصلح فعلا أن يستشار

ثم أضاف لها في الشطر الآخر صفة رابعة وهي قوله (قد استوى فيه إسرار وإعلان) والإسرار بين الإنسان وبين الله لكن لا يعرف عنه خلال ظاهره خبث وشر وبطانة شر وكيد ، لأن مثل هذه المعاني

قد تنكشف بفلتات اللسان {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ }[محمد-30] (قد استوى فيه إسرار وإعلان)

ثم قال رحمه الله

فللِتــدابيــرِ فُرْســانٌ إذا رِكِبــُوا ...... فيهــا أبَــرُّوا كمــا للِحَربِ فُرْســان

(فللتدابير فرسان إذا ركبوا فيها أبروا) التدابير تدابير الأمور، ما كل أحد يصلح ، وفي الحديث (الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة) واقرأ شرحا جميلا جدا لهذا الحديث في جزء مفرد لابن رجب رحمه الله تعالى وهو مطبوع (فللتدابير فرسان) فللأمور والأعمال والمصالح ، ولاسيما المصالح مصالح الأمة العامة ومنافع الناس لها فرسان إذا ركبوا فيها أبروا ، إذا استلموها وكانت بين أيديهم أبروا أي فازوا وظفروا وحمدوا وحمد غيرهم العاقبة.

(فللتدابير فرسان إذا ركبوا ***فيها أبروا كما للحرب فرسان)

مثل ما أن الحرب لها فرسان ، أيضا تدابير الأمور لها فرسان إذا كانت بأيديهم حصّلوا وحصّل الناس معهم النتائج الحميدة الطيبة

نقف عند هذا البيت ولنا مع هذه المنظومة مجلس واحد تنتهي به هذه المنظومة في لقاء الغد بإذن الله سبحانه وتعالى ، نسأل الله أن ينفعنا وإياكم أجمعين بما سمعنا ، وأن يجعل ما سمعناه نافعا لنا غير ضار ، وأن يهدينا إليه أجمعين صراطا مستقيما ، اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت ، اللهم إنا نعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء ، الهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون علينا مصائب الدنيا

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا ، وقواتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

اللهم صل وسلم على عبدك ونبيك محمد وآله وصحبه أجمعين